

كيد النساء

بقلم : رامي موتانا

غادتان في ربيع العمر، من زهرات المجتمع، أخذتا مجلسيهما في
الغرفة الأنيقة وجها لوجه.. ولاحت ابتسامة هادئة على شفتي "راجيني"،
إحدى الفتاتين، بينما بقيت عيناها جامدتين.. متحديتين.

وما لبث أن قالت لجليستها:

- أحسب يا عزيزتي "بيننا" قد التقينا من قبل.

وابتسمت "بيننا"، وهي تغالب إحساسها بالقلق والضيق.. أن
التقاءها براجيني بعد السنوات العديدة التي مرت بها منذ عرفت كلتاهما
الأخرى لم يكن في حساباتها ولا هي توقعته قط!..

أن تعارفهما يعود إلى الماضي البعيد، إلى عهد طفولتهما.. كانت
الأسرتان تعيشان متجاورتين. وكان والد راجيني رجلاً موسراً يتبوأ منصباً
في إحدى المصالح الحكومية، وقد اعتاد ألا يضمن على راجيني وحيدته
بمال أو بإعزاز وغيثار.. في حين كان والد "بيننا" بالنسبة إليه لا يسلك
إلا في عداد الفقراء.. فقد كان كاتباً بسيطاً في المصلحة ذلتها، ومع
ذلك كانت الأسرتان متوادتين كتعاطفتين.. إن "بيننا" لتذكر جيداً تلك
الأيام، حين كانت معتادة أن تصحب أخوتها وأخواتها وتتجه معهم إلى
منزل الجيران، ليقضوا الوقت كله في اللعب مع "راجيني" في فناء الدار،
أو في غرفتهما الجميلة المطلقة الجو، بما هبى لها من وسائل التهوية.

وكانت تحس أن دخولها تلك الغرفة كدخولها أرض العجائب، فقد
كانت للغرفة رفوف تمتد بعرض جدرانها الأربعة، ويصطف عليها عدد لا

يحصى من اللعب المختلفة الأنواع والأحجام.. كان والد راجيني كلما ذهب في رحلة من رحلاته العديدة لم يفته أن يحضر معه بعض هذه اللعب.. هذه الدمية من شينا باتنا، وهذه العلب الخشبية من ميسور، وهذه الأنابيب والأدوات الملونة من كشمير ومن.. ومن..!

ولم تكن بينا، تهفو إلى شيء أكثر من أن تتاح لها دائماً زيارة هذا المعرض الصغير.. وكان جيرانها يدعونها كلما جاء أحد الأعياد لتمضية وقتها مع راجيني، فكانت تقبل على أنواع الحلوى تزدرد منها ما شاءت، حتى إذا عادت إلى بيتها جعلت تستعيد في مخيلتها الأشياء التي طمعت، واللعب التي رأت..

وفي مناسبة من هذه المناسبات، أرتهها صاحبته، عروسة كبيرة من الباعة كان أبوها قد أحضرها لها حديثاً من اليابان.. كانت عروسة عجيبة ترتدي ثوباً بديعاً ولها خصلات من الشعر الحقيقي تغطي رأسها وتنسدل على كتفيها، لقد كان من الميسور غسلة وتصفيرة. وكان لها أربعة اثواب أخرى لتبديل زيتها، وضعت داخل دولاب صغير خاص بها. لقد نظرت إليها "بينا" مشدوهة، ولم تكن تتصور وهي في ربيعها الثامن شيئاً أجمل منها يمكن أن يتمناه الإنسان لنفسه! يا لها من فتاة سعيدة!

لماذا لم يحضر والد "بينا" مثل هذه اللعب لها؟!.. لقد كانت تعامل معاملة إنسان كبير، بحكم أنها أكبر إخوتها.. فكانت دائماً تعاون والدتها في القيام على حاجة أخوتها الأطفال من اغتسال وتغيير ملابس، وتعني بشئونهم في غيبة أبويها، وترعاهم وهم يلعبون خارج الدار.. وإذا

اتفق أن جاء والدها بهدية لهم فلن تكون إلا من نوع علب البسكويت أو المربي.. حتى في عيد ميلادها التاسع لم تتلق دمي كدمية راجيني.. كيف يستطيع عقلها الصغير أن يستوعب أحكام الميزانية أو يدرك أن الطعام والملبس لهما أولوية على مثل تلك الكماليات التي تفكر فيها!

وهكذا لم يكن أمام "بيننا" وأخوتها إلا عروسة "راجيني" تستهوي أفئدتهم وتجذبهم إليها ليقضوا معها الساعات لاعبين هائنين مبتهجين حتى إذا انقضى النهار النهار وضعت "راجيني" لعبتها في صندوقها وحملتها إلى مكانها فوق الرف، وعادت "بيننا" إلى البيت ناعمة مسرورة.

وفي ذات يوم واد، بعد الظهر، كان علي راجيني أن تقوم بجولة خارج البيت.. فدعتها والدتها وذهبت وهي غير راغبة.. وبقيت بعيدة عن الدار وقتاً طويلاً. وامسكت "بيننا" بالدمية بين يديها وجلست تنتظر فقي عنبر. ومرت فترة طويلة من الوقت وراجيني لما تعد بعد.. وأخيراً قامت وخرجت من الغرفة تبحث عنها.

لقد تبينت أن صاحبها قد ذهبت بعيداً بالسيارة مع والديها وضيوّفهما، ونسيت "بيننا" تماماً! وعندما وصلت هذه إلى الباب الخارجي تنبتهت إلى أنها مازالت تمسك بالدمية. والتفتت خلفها ناحية البيت، ولم يكن أحد هناك فيما بدا لها.. كان الخدم جميعهم منصرفين إلى شواغلهم.. عنئذ خطر ببالها خاطر، فإذا هي تعدو نحو بيتها وكان قلبها يخفق عالياً في اضطراب.. واتجهت إلى حجرتها وأخفت "العروسة" في فراشها.

وهدأت "بيننا" بعد لأي يء ولكن جسمها كان يسري في أوصاله تيار من الخوف والقلق.. كان سر الدمية المخبأة يكاد يعصف بقلب الصغيرة. وأخيراً أصبحت اللقية من نصيبها.. كان لدى راجيني لعب كثيرة، ولذلك أملت ألا تفتقد عروستها اليابانية!

ولم تكن تستطيع أن تستجمع شجاعته وتذهب إلى منزل راجيني في اليوم التالي، وعندما جاءت بنفسها إليها لتسأل عنها صعد الدم إلى وجهها وخيل إليها أن عيني صديقتها الصامتتين تتهمانها! لقد اكتشف فعلاً أمر ضياع اللعبة، ولكن الاتهام قد انصب على أحد الخدم في دار راجيني أما اسم بينا فما خطر ببال أحد في ذلك الظرف قط.

ولكن والدتها هي التي اكتشفت أمر السرقة، عندما وجدت ابنتها على غير عاداتها تجلس في فراشها وهي تلعب بالعروسة الكبيرة.

وسألته الأم متعجبة: "من اين لك هذه العروسة الجميلة...!؟". وأجابت بينا: "راجيني أعطتني إياها".

غير أن والدتها ما لبثت أن عرفت الحقيقة واستدرجت الطفلة إلى الاعتراف بما فعلته.. فمكنت معها ساعة تلقنها فضائل الأمانة والأخلاق الحميدة.. ثم قالت لها:

- الأفضل لك أن تعيدي هذه اللعبة إلى صاحبته.. سنذهب إلى بيتها معاً، وسأوضح لوالدتها كيف انك استعرت العروسة لبضعة أيام.

وانخرطت بينا في البكاء.. ودمعت عينا والدتها وقالت لها: "إنك بعد صغيرة لا تدركين الأمور على حقيقتها، إن بابا سيتألم لو علم أنك تسألين أشياء لا يستطيع أن يأتيك بها.. لا تنسي أن بابا يفخر بك وبخلقك..".

وخجلت بينا وسكتت..

وذهبت مع أمها إلى راجيني

وقالت الأم لوالدتها "إنك تعرفين طبيعة الأطفال، لم تستطع طفلي أن تقاوم رغبتها في اللعب بهذه الدمية، فأخذتها معها. وأني أطمع في أن تصفحي عنها وتغفري لها هذه الهفوة..".

أومات الأم برأسها وكأنها تقول : فهمت!.

وبعد أيام ذهبت راجيني إلى بينا وقالت لها: لقد أوصتني أمي بـألا أَلعب معك منذ الآن.. فأنت.. لصة!.. لصة! لقد نفذت الكلمة إلى فؤادها ووخزته كوخز السفود المحمي في النار!.. فعدت إلى الداخل وانكفأت في فراشها تبكي وتنتحب، بينما تجمع الأطفال أمام باب المنزل وراجيني في طليعتهم يتصايحون: "اللصة.. اللصة.. بينا لصة".

إن هذا الحادث قد نسي مع مرور الوقت، وانتقال والد راجيني إلى بلد آخر ولكنه ترك ندبة واضحة في ذهن بينا ومشاعرها..

امتد العمر بيننا زمنًا طويلاً عاشت خلاله من حياتها القاسية..
ولكن إحساسها بالمرارة قد زال شيئاً فشيئاً مع مرور الأعوام، واصبحت
لها نظرة فلسفية جديدة في الحياة.. لقد وجدت حولها ما يشغلها..
وبعد أن أتمت تعليمها في الكلية حصلت على وظيفة "مضيفة" في دار
كبرى من دور النشر، وهناك تعرفت إلى صديقها المؤلف الشاب
والصحفي الناجح "برامود".

ونشأت بينهما صداقة قوية.. كثيراً ما كانا يقضيان أمسياتهما معاً،
وتطورت صلة الشاب بفتاته حتى صار يدعوها إلى لقاء والديه، وقضاء
الأوقات الهانئة في صحبة أفراد السرة الذين الفوها وأنسوا بها.

وجاء اليوم الذي تحتفل فيه الأسرة بعيد ميلاد "برامود" ودعيت
"بيننا" إلى الحفل.. وكانت واثقة من أنها تستطيع أن تبرز بشخصيتها
وتملأ مركزها بين المدعوات.

واقترب منها برامود وهمس في أذنها بكلمات الإطراء والإعجاب..
وخلت هي بين هذه الكلمات وهذه اللحظات الساحرة في تلك الأمسية
وبين قلبها تسترته، وتستهو به.. ولكن راجيني قد طرأت فجأة على
أحلامها، وبددت أحييتها".

أين كانت هذه الطارئة طوال هاتيك السنين؟ كيف عرفت برامود؟!
وقالت راجيني وكأنما تجيب عن تساؤلها الذي تجهز به: برامود قريبي..
أنا ابنة عمه.. الا تعرفين هذا؟

وبدا عليها الاستياء عندما أدركت أن برامود لم يذكر اسمها أمامها قط. كانت راجيني تتقد في السر أملاً وعاطفة، وتعمل على أن تعطف قلبه نحوها.. وكانت تعلم أن الأسرتين تباركان هذا التقارب وتؤيدان هذا الاتجاه.. وقد جاءت إلى المدينة لتدبير هذا الأمر، وتتودد إليه حتى يهبها قلبه وحبه، فيتحقق لها ما تريد. وقد تحت تأثير سحرها.. وكانت تحار في تفسير موقفه منها ولا تدري سر إعراضه عنها.. حتى عرفت أخيراً كل شيء.. فهذه هي غريمتها تظهر في الأفق لتفسد كما ما رتبته، وتهدم كل ما بنته!

ونظرت إليها نظرة حنق وتغيظ حاولت أن تداريها، ولم ترد أن تكشف لها عن أوراقها، واستكفت أن تضعف أمامها وتصارحها بأنها غريمتها. ومن هي بينا وما تكون في المجتمع الراقي؟.. ماذا تستطيع أن تقدمه لبرامود، لا ثقافة ولا عراقية، ولا حسب أو نسب.. إنها نجمة ذهبية كايه طرأت على المجتمع المصري وحشرت أنفها فيه! متطفلة!.. لقد كان اقتحامها هذه الحرم وظهورها بمظهر الفتيات الراقيات من مثيلاتها أكثر على راجيني مما تحتلمه أو تطيقه.. فما إن لمجت النظرات التي تبادلها برامود وبيننا ليس من حقها أن تظفر بحب برامود.. كيف تجرؤ على التطلع إلى ما هي ليست أهلاً له؟!.. هل نسيت الأيام التي كانت فيها أسرتها تعيش على الكفاف، ولولا كرم جيرانها من أسرة راجيني لعانت الكثير من شظف العيش وقسوة الحياة؟.. هل نسيت الدمية التي سرقتها؟!

سددت "راجيني" نظراتها إليها، وهي في جلستها تلك في الغرفة الأنيقة.. وأحست بينا بقسوة هذه النظرات فسرت في بدنها رعدة راعدة، وانكلمت كأنها فراشة تخرج لتوها من شرنقتها وتمتمت راجيني قائلة: "ما أبدع هذا الساري".

وانتعشت بينا قليلاً.. لقد كانت متخوفة منذ التقت بها وجلست معها وجها لوجه.. وهي تتمثل أمامها راجيني القديمة. أما وقدراتها تجاملها وتتلفظ معها فقد زايلها الحذر وأقبلت على صاحبها تحادثها في مودة، وتستعيد ذكريات الأمس البعيد، وحوادثه، ونوادير طفولتهما.

وفجأت مالت نحوها ورمقت أصبعها الدقيق ثم قالت: "ما أجمل الخاتم البديع الذي تلبسينه!".

وقالت راجيني مفاخرة: "إنه خاتم موروث".

وأدارت يدها لتخرجه من إصبعها.. وانعكس الضوء على فسه الماسي النفيس فلمع وتوهج ببريق يخطف الأبصار!..

ومدت يدها إليها وهي تقول: "جربي أن تضعيه في إصبعك يا عزيزتي...".

وفي هذه اللحظة جاء برامود، ووقف إلى جوارهما..

وقال "برامود" متهللاً مرحى مرحى كيف التقيتما معاً؟ وما تراكما تصنعان؟ أتستعيذان ذكرياتكما؟ بينا.. أني أود أن تأتي معي وتعاوني أُمي

في إعداد الشاي. وأنت يا راجيني.. كوني لطيفة واذهبي إلى ضيوفنا
وجاملهم..".

وراقبت راجيني "بيننا" وهي تتعد في صحبة برامود. ولبثت قليلاً
وهي تعض شفتها السفلى في سخرية ثم غادرت الغرفة واختلطت
بالمدعوين.

أذن الحفل بالانقضاء، واتجهت الجماعات ناحية باب الخروج..
ولحقت "راجيني" "بيننا" بينما كانت هذه تقف بجانب برامود وتحيي
الأضياف وهم منصرفون.

- بينا.. هل تسمحين بإعادة الخاتم؟

ودهشت بينا وقالت: "الخاتم؟!.. ولكني أعدته إليك!".

- لا.. لم تعيده..

واعترضت بينا قائلة:

- بل إنني أتذكر جيداً أنني أعدته إليك!

فالتفت "راجيني" إلى "برامود" وقالت له وكأنها تستعديه عليها "لو
كان المر كما تقول لكان الخام في إصبعي.. انظر، ليس هناك خاتم!..
ولذلك قلت لبينا أنها مخطئة".

وسرت رعدة باردة في جسم بينا.. اي فح محكم تنصبه لها!.. هل تريد راجيني أن تدخل في روع من حولها أنها قد سرقت الخاتم؟ لقد أعادته على التحقيق إلى صاحبه ولم نعد نعلم عنه شيئاً بعد ذلك.

ولمح الواقفون أطراف المشادة فاقربوا يشهدون أطوارها.. وأحست بينا احساس المذنب وتملك الخوف قلبها فارتعشت أطرافها كقصبه تواجه الريح.. ووقف برامود ونظر إليها في حيرة وتساؤل، ثم قال:

- تمهلاً قليلاً لست فاهماً شيئاً. أين ذهب الخاتم يا بينا إذا كنت قد أعدته إلى راجيني؟

وقال أحد الحاضرين: "لماذا لا تبحثون عنه فربما سقط في مكان ما".

وانطلقوا يبحثون عنه في كل مكان.. على موائد الشاي وتحت المقاعد، وفي زوايا الحجرات، ولكنهم لم يعثروا عليه!

ووقفت بينا جامدة لا تتحرك ولا تنطق.. لقد تحققت الآن أن راجيني قد دبرت لها هذا الكمين وأوقعتها فيه ظلماً وكيداً.. رباها! لماذا ذكرت الخاتم وابدت إعجابها به؟ لماذا حضرت الحفل؟! ليتها لم تفعل.. ليتها لم تأت!.. إن خاتماً ماسياً كهذا يعد في نظر الناس أكبر إغراء لفتاة كادحة.. لقد تظاهر الضيوف بالتهوين من شأن الحادث،

ولكنهم لم يستطيعوا أن يخفوا شعورهم بأن الأمر لا يعدو أن يكون بالنسبة لهم ملهاة وتسليه.

والأمر المحقق أن الحفلة قد أفسدت.. وفشلت!

وزحف الاضطراب من جديد إلى الفتاة المسكينة، واقتربت منها راجيني أكثر من ذي قبل، وهي تفرك يدها مهتاجة وتقول: "إنه خاتم نفيس، لا يمكن أن أدعه يفقد مني..".

وقالت بينا:

لقد قلت لك أني أعدته إليك، لماذا لا أراكم لا تصدقونني؟..

إذا كنتم تظنون أني أخفيته في مكان ما فلماذا لا تفتشونني؟

لقد أدركت حتى قبل أن تتكلم أنها قد استدرجت إلى الفخ، وأنه لا محيد لها عما أريد لها من مصير.. أما "راجيني" فقد تركزت نظرتها فوق كيس نقودها!

وانفرجت أصابع "بيننا"، وتركت الكيس يسقط على الأرض، محدثاً عند ارتطامه صوتاً كصوت المعدن. وانحنى راجيني والتقطته، وفكت رباطه وأدخلت اصابعها ثم.. ثم أخرجت الخاتم!

وحدقت بينا فيه وهي كالذاهب في غيبوبة طويلة، وذهلت عن نفسها، وأظلم كل شيء من حولها!

وعندما استعادت وعيها، وجدت المكان خالياً، إلا من برامود الذي كان يجلس إلى جوارها.

وبكت بينا وقالت: برامود. ز إن سمعتي قد صارت في الوحل!.. هل تعتقد أنت أيضاً أنني سرقت الخاتم من راجيني؟"

قال:

- بل أنا لا أعتقد شيئاً من هذا، ولكن لماذا بدا منك ذلك التصرف حيال شيء تافه كهذا؟ لقد ظهرت كما لو كنت مذنبه.

عندئذ اعتدلت بينا وأخذت تنفض القصة الحقيقية من بدايتها إلى نهايتها.. حدثته عن واقعة الدمية التي سرقتها، وشعورها بالطيبة الذي ظل مختزناً في عقلها الباطن طوال تلك السنوات. وحدثته كيف راجيني كانت تذكر ذلك جيداً فأرادت أن تستغل ضعفها.. ولا يبعد أن تكون راجيني قد عمدت إلى دس الخاتم في كيس نقودها وهي غافلة عن فعلتها، بينما كانت هي منطلقة مع برامود لتعد الشاي. ولكن لماذا فعلت راجيني هذه الفعلة؟ ماذا جعلها تحقد عليه وتكيد لها؟

وقفز برامود واقفاً وقد انطلق وجهه ولمعت عيناه، وقال لها وكأنه يجيب تساؤلها:

- سأخبرك عن ذلك فيما بعد.. لقد وضح لي الآن كل شيء وضغط على يدها في شغف وحنان، واستأنف قائلاً:

- أنني مغتبط بما حدث.. فقد ساعدني على أن أنتهي إلى قراري،
وأحقق عزمي، فأطلب يدك، وأنعم بالزواج بفتاة أحلامي وبتادلا نظرات
الحب.. نظرات أكثر دلالة مما كانت، حتى بداية الحفلة.

أن الخير قد يحني رأسه للعاصفة، ولكنه يخرج من صراعه مع
الشر منتصراً في النهاية، ما في ذلك من شك!

لقد كانت أمينة هناك، تداعب الأمواج كعادتها في النهر الصاحب
الغاضب الهدار، الذي لا يعرف السكون..